

لا مساءلة لا رحمة... وصراع من أجل البقاء

الكاتب : سماح هدايا

التاريخ : ٢٢ ديسمبر ٢٠١٢ م

المشاهدات : 6751



"عندما تصبح الشبابيك هي السماء.

والأبواب هي السماء.

والسما هي العري والعراء.

والأرض هي الجوع والخواء.

لا يبقى للدمع مجرى يسقيه.

ولا يكفي الجرح أن تبكيه.

فالشعب سئم الموت والرثاء.

ومل النوح والعزاء.

قد آن للفعل أن يمك الزمام، وللحق أن يخوض المعركة الفصل لصرع الفصام.

كان الطفل وسط الخيمة التي تفجرت أرضها عيون ماء تحت هطل المطر الغزير.

وكانت أمه الراكضة وسط الماء مشغولة عنه بحمل طفلتها الرضيعة التي لا تقدر على المشي؛ لكنّها لما رآته، فجأة ، يتخبّط

بين الأمطار والمياه، وسمعته يصرخ "يا يما هون في بحر كبير. من وين أجاها البحر يا يما؟

البحر عم يهجم علينا.

البحر حياخدنا..... يا إما ...تعالى إما خدينى من المى"

ركضت كمجنونة فى الماء والطين والرياح والصواعق التى تضرب الخيام؛ لكى تصل إليه وسط المياه التى كانت تغطيه حتى

فخذيته .
وراحت تصارع الماء والطين والرياح والصواعق التى تضرب الخيام؛ لكى تصل إليه وسط المياه التى كانت تغطيه حتى

وعندما وصلته شدّ جسمه عليها مرتعدا، وصار يصرخ بحنون" نزليني على ضيعتنا فى الجسر.

هناك ما فى بحر بياخدنا. هون فى بحر كبير بدو ياخدنا"

هذا الحدث ليس تخيلا... بل حادثة من الواقع الحقيقى. وهؤلاء بشر حقيقيون من أبناء سوريا؛ اضطرتهم الحرب لأن يكونوا

لاجئين فى مخيم فى شمال سوريا.. وذلك لم يكن بحرا.

كان فيضانا حقيقيا أكثر طغيانا من البحر ، وفى نظر الطفل كان خضما رهيبا .

وهؤلاء، ليسوا مجرمين، لكى تصيبهم اللعنة والسخطة فيضيغوا فى المأساة..، وليسوا فاسدين طغاة نشطوا فى إفساد الأرض

وعقوا القوانين الكبرى لتعاقبهم

الطبيعة وتغضب منهم وعليهم؛ لكن، لأنّ المستبدين فى سوريا مارسوا بحقهم كل أنواع الترهيب والترويح والإبادة؛ فهربوا

بحثا عن ملجأ فى مخيم على حدود الدول الأخرى.

ولأن أصحاب القرار القائمين على مخيمات الدول المتصدقة،

لا يباليون كثيرا بأرواح هؤلاء اللاجئين؛ فهم، بحسب اعتقادهم وفعلهم، مجرد لاجئين، وتكفيهم خيمة ولقمة عيش.

ويمكن تأجيل إصلاح الخيمة وإعداد المخيم لفصل الشتاء شهرا ؛ فعناصر السلامة تليق بالحضر وسكان العمارات والمدن

أكثر من سكان الوبر والخيام والمشردين، حتى وإن كانوا طارئين على الخيام والشتات والزوح؛ بعد أن كانوا أبناء الحضر.

فلا يعنى القائمين على الأمر إلا الصورة الجميلة الظاهرة للعالم، لا الحقيقة مهما كانت ملحة؛ لأنها فاضحة. ومع ذلك فشل

غباؤهم فى تجميل الصورة....ورأى العام غرق المخيم؛ لكنه اكتفى بالبكاء.

وبعد أيام معدودات، فى مخيم سوري آخر بعيد عن ذلك المخيم الشمالي فى أقصى الجنوب خارج البلد.. حملت

الأم اللاجئة طفلها بين يديها المرتعشتين. كان كقطعة جليد متيبسة. مات أمام عينيها وفى حضنها بسبب البرد. حاولت

أن تدفئه، لكن جسدها كان أيضا باردا، فلم يسعفها لحماية وليدها. حتى حبها الكبير لم يكفه ليعيش ويصمد فى مخيم البرد

شديد. فليس معهم، هناك، ما يقاومون به البرد إلا الدعاء والنداء والصمود وتلاصق أحسادهم، وحركاتها لتحمية الدماء

اتقاء الانهيار تحت البرد وفى صقيع الصحراء.. هنا لا بحر مخيف. كثير من الريح والبرد ورمال الصحراء، وكثير من

انعدام الدفء والنار... فلا موقد ولا حطب حتى الملابس والأغطية لا تكفي. وعلى صدر الأم توفى الصغير. وتوفى معه

فى حضن أمهات أخريات اثنان غيره. ثم توفى طفل ثالث، بعد يومين.

نعم. فى الشتات تتسع دائرة هدر الحقوق.

والظلم يشتد. فلا مساءلة. لا رحمة. وأحاسيس الشفقة مؤقتة وعابرة. وفى كل المخيمات الممتدة من الشمال إلى الجنوب

إلى الشرق، تلخ الإدارة عن نفسها كل تهمة أو تقصير وتنفى مسؤوليتها عن الموت والعذاب والبؤس... ويصبح المريض

أو الميت قهرا وجوعا وبردا وغرقا هو المتهم وهو الضحية التى يكفمها المطالبة بحقها.

لكن الشتات ليس فى الخارج فقط؛ فهو على امتداد الوطن كله. نزوح وخوف وعراء. وفى كل يوم دمار وهلاك لايتوقفان..

غارة حربية تشنها طائرة عسكرية نظامية على الأطفال والنساء والرجال فى حي يعجّ بالناس. ثم على المدارس والملاجئ

والمزارع وعلى معصرة للزيتون مكتظة بالمزارعين؛ فتلقى القنابل العنقودية والفراغية والفوسفورية، وتقتل الآمنين وتحرقهم وأرضهم.

وعلى مدار اليوم يموت الأطفال أمام أعين أهليهم...

ويموت الأهل أمام أعين أولادهم...والعالم صامت يتفاحس عن أداء واجبه الأخلاقي، ويتردد في تقديم الغوث والإنقاذ؛ كأن هؤلاء الأطفال ليسوا أطفالا يستحقون الدفاع عنهم. أو كأن هؤلاء البشر ليسوا بشرا، يستحقون كرامة الحياة وشرعية الوجود.

العالم كله لايبالي، وتعمى أبصاره عن صورة مأساتهم في كل مشاهدتها. ولا تتبوأ صورة طوابير الخبز التي يصطف فيها الأطفال في أدوارهم ليشتروا الخبز، ويتحولوا إلى أهداف للطائرات الحربية، تقصفهم وتحولهم إلى أشلاء موقعا مهما في أولوياتهم ووجدتهم

نعم هي خيمة وشتات ونزوح وجوع وبرد، ووطن يخنقه موت مريع وإبادة مخفية، وبشر يحاولون أن يثبتوا ويصمدوا أمام البرد الشديد والريح العاتية، والجوع الكافر، يقاومون الحرائق والقصف والتفجير.

ونعم أيضا أن العالم، كلّه، لا يعنيه من ذلك إلا خوفه على إسرائيل وعلى مصالحه الاستغلالية، قد عجز عن تضميد الضمير الذي امتلأ بأثخن الجراح؟

ألا يحرك الضمير والفعل كل هذا الدمار والإبادة والترشيد وفتيت الوطن وتهشيمه؟

أمازال هناك متسع للفرجة والتأمل وتأجيل الأفعال ألم يحن الوقت للكف عن الصمت و الانقسام والصراع على الزعامات والمصالح والمقامات.

الأمر أصبح استحقاقا تاريخيا وأخلاقيا لا مفر منه.

رابطة أدباء الشام

المصادر: